الصين

(تتمة ما سبق)

وللامبراطور في الصين السلطان المطلق حتى في شرائع المملكة يلغي منها ما يشآء ويسنّ ما يشآء والصينيون يعظمونهُ الى حدٍّ لا ينحطّ عن مقام العبادة ومن خالفهُ منهم فهو الذنب الذي لا تسعهُ مغفرة ولا تُقبَل فيهِ شفاعة . وهو لا يخرج من بلاطهِ الا في النادر واذا خرج كان محفوفاً باعظم مظاهر الجلالة والأُبهَّة وحيثما مرّ خرّ الناس لهُ سُجَّداً . ولهُ مجلس شُورَى ينعقد من الوزرآء ويتولى الاحكام القضآئية في المملكة سبع محاكم منها محكمةٌ مخصوصة بأُسرة الامبراطور وسائر امرآء السلالة ونصف رجال المحاكم من الصينيين والنصف الآخر من المنشوريين

واهل الصين ينقسمون الى سبع رُتَب وهي الولاة والجند والعلمآء والكهنة والفلاحون والصناع والتجار وللولاة عندهم مهابة عظيمة حتى انهُ لا يكلمهم احدٌ الا وهو ساجد ولا يخرجون الا في المواكب الحافلة ومتى خرجوا تنحَّى لهم الناس ووقفوا وهم باسطون ايديهم حتى يجوزوا . والولاة رتبٌ يتميز بعضها من بعض بالملابس وليس لاحدٍ ان يزين ملابسهُ بالذهب سواهم واكابرهم يمتازون بقلائد يجعلونها في اعناقهم . ومن علامات الشرف عندهم ريشة طاووس يجعلونها في كُمهم ولا يهبها الا الامبراطور تُعطى من يدهِ

والمنتخَبون لمقام الولاية لا يكونون الا من العلمآء واما سائر الوظائف

فيمكن ان ينالها كل دارس بشرط ان يكون من اصحاب الاجازات ولذلك لا تكاد مدينةٌ عندهم ولا قريةٌ تخلو من المدارس وكلها تقام على نفقة الرعية لان الحكومة لا تمدّ الا مدارس العاصمة التي يدرس فيها ابناء كبراء الدولة واما اغنياء البلد فيستحضرون مؤدّبين لاولادهم الى منازلهم . وهم يشرعون في تلقين الاولاد معرفة الحروف منذ السنة الخامسة ولهم عنايةٌ بالغة بتجويد الخط لان التقارير التي ترفع الى المقامات العالية ينبغي ان تكون محكمة الرسم نقية الرقعة وكتابتهم باقلام يتخذونها من وَبَر الارانب على مقبضٍ من الخيزران ويُمسك القلم عموديًّا فوق الصحيفة بحيث تتحرك الاصابع وحدها وفي هذا من الصعوبة ما لا يسهل الا بالعادة . ومتى ختم الطلبة دروسهم يرسلون للامتحان في احدى المدن من الرتبة الثالثة فان افلحوا اعيد امتحانهم في مدينةٍ اخرى من الرتبة الثانية اي في عاصمة احدى الولايات ثم في باكين عاصمة المملكة وهناك تُعطَى لهم رتبة تسين.سي وهي بمنزلة دكتور

اما العلوم في الصين فمعظمها يدور على العلوم الادبية ولهم دواوين شعرية وروايات قَصَصية وتمثيلية ومن مشاهير شعرآئهم الامبراطور كَنْغ هي والامبراطور كيان لُنغ وكان هذا الثاني شديد الكلف بالشعر حتى انهُ جمع نُخَباً منهُ شرع في طبعها سنة ١٧٧٢ بلغ المطبوع منها سنة ١٨١٨ ما ينيف على سبعة وثمانين الف مجلد . وعندهم كثيرٌ من الكتب الادبية والفلسفية اشهرها مصنفات كنفوشيوس ومنشيوس وفلاسفة آخرين وقد ترجمت هذه الى اللاتينية وبعض لغات اوربا الحديثة . ولهم مؤلفات واسعة في الجغرافية

ولا سيما جغرافية البلاد الآسوية من الصين واليابان وتُبَّت وتركستان وسائر بلاد آسيا العليا ولكلها خرائط محكمة عنها اخذ اهل اوربا في الاعصر المتوسطة ما نقص في خرائطهم من رسوم بعض البلاد الآسوية وجزائر المحيط . وهذه المؤلفات تشتمل على كل ما يتعلق بالمملكة من وصف الامكنة والمياه والابنية والآثار والغرائب الطبيعية والصناعات المختلفة والمتاجر والمزروعات والاحكام والتواريخ والتراجم وغيرها وهي مؤلفة من ٢٥٠ مجلداً ضخماً

ومن العلوم التي صنفوا فيها المواليد الثلاثة والطب والبيطرة والفلاحة والفنون الحربية والموسيقى ولهم موسوعات علوم مؤلفة من مئتي مجلد . وعندهم ميلٌ شديد الى علم الهيئة الا انهم قلما ادركوا منهُ ولهم ندوةٌ فلكية قديمة يجتمعون فيها لكن اعمالهم لا تتعدى وضع تقويم سنوي يتولى عملهُ قومٌ من الاجانب ولابدّ فيهِ من الاشارة الى ايام السعد والنحس وهذا القسم منهُ موكولٌ الى اناسٍ من الصينيين . وهم يجهلون حساب الكسوف والخسوف ولذلك فانهُ عند وقوع حادثٍ منهما يكون لهُ في بلادهم روعٌ عظيم فيلبسون السواد وينقطعون عن الاعمال

اما علم الكيمياء فمع انهُ غير منزَّلٍ عندهم منزلة احد العلوم فقد اصطلحوا على اشياء توصلوا اليها بالتجربة منها انهم يُصَفّون الماء الكدِر الذي يأخذونهُ من النهر بحيث يمكن ان يُشرَب على الفور وذلك بأن يخوضوهُ بانبوبٍ اجوف من الخيزران يجعلون فيهِ قطعةً من الشب . ومنها انهم يستخرجون دهن كل نوعٍ من المواد ويجهّزون الاصباغ الانيقة

ويدوفونها ويلوّنون بها الحرير والقطن والورق وغيرها . ولهم خبرةٌ وافية بسبك الحديد يصنعون منهُ آنية رقيقة خفيفة ويغشونها بالطلآء وقايةً لها من الكسر ويصنعون ايضاً الشبَه ويفرغون منهُ تماثيل . ومعلومٌ ان صناعة البارود عندهم قديمة من قبل التاريخ الميلادي الا ان بارودهم رديء وصنعتهُ شائعةٌ يعرفها كل احد بل من فروض الجند عندهم ان كل جنديٍّ يتولى صنع البارود الذي يلزمهُ بيدهِ

واما صناعة الزجاج فهي عندهم منذ القرن السادس للميلاد وقد توصلوا الى ان يلبّسوا صفائح الزجاج طبقةً من الفضة ويستعملونها احياناً مرآئي لانهم عادةً يستعملون الوذائل وهي المرآئي المعدنية يتخذونها على الغالب من مزيج النحاس والزنك . وقد انتهت اليهم مرةً ساعةٌ من صنع اوربا فصنعوا مثلها فجاءَت محكمة الصنعة فهم على الجملة اذكيآء العقول سريعو الادراك مليُّون بالصنائع الدقيقة

اما الصنائع الحِيَلية اي الميكانيكية التي اشتهر بها اهل الصين وبلغوا منتهى البراعة فيها فهي صناعة خرط العاج وصدف الدرّ ولهم من هذه الصناعة المراوح المشهورة والشكائك الكبيرة والحِقاق المزخرفة وتماثيل الهياكل واشباهها وغير ذلك من الطُرَف اللطيفة البديعة النقش مع رخص اثمانها

ولهم في الخيزران صناعةٌ واسعة فانهم يتخذون منهُ كراسيَّهم وموائدهم واسرّتهم واشرعة مراكبهم وصواريها وقلوسها ويصنعون منهُ العربات وآلات رفع المآء وغيرها ويتخذون منهُ عجينةً يصنعونها ورقاً للكتابة وفي الجملة فهو

عندهم انفع من تفاريق العصا

وهم يصنعون الورق من عصافة الرزّ وغيرهِ من الحبوب ومن قشر التوت والقطن والقنَّب والقُرّاص وانواع أُخر من النبات وقد يكون الطبق منهُ كبيراً حتى يكفي لأن يغشَّى بهِ جدار غرفةٍ متوسطة وورق الكتابة الذي يصنعونهُ يكون مصقولاً كالرقّ

وقد عُرفت صناعة الطبع عندهم منذ القرن العاشر للميلاد وهم يتخذون لهُ صفائح من الخشب يحفرونها ولا يستخدمون الحروف المتقطعة الا للجرائد او للكتب التي لا قيمة لها ولهم حبرٌ خاصٌّ للطبع . ومن عادتهم ان من طبع كتاباً يضع عليهِ خاتمهُ وهو يكون عادةً مربع الشكل عليهِ كتابةٌ بالقلم القديم والحبر الذي يختم بهِ يكون على الغالب احمر ويحفر عليهِ اسم صاحب الكتاب او فقرةٌ حكمية

اما الموسيقى فقديمةٌ في الصين يستعملونها في جميع الاحتفالات وليس عندهم ارقامٌ موسيقية ولكنهم يدلون على اسماء النغم والدواوين بحروف هجائية على ان هذه الطريقة انما ارشدهم اليها احد المرسلين

ولهم المامٌ بالتصوير فانهم يصورون الازهار والشجر والمنازل والسفن وغير ذلك من المناظر تصويراً حسناً ولكنهم لا يدركون تمثيل القرب والبعد ولا يحسنون رسم الوجوه ولا اظهار المجسمات وهو خلاف ما قررهُ عنهم ابن بطوطة . ولهم يدٌ في صنع التماثيل من الخشب والحجر ولكنهم يسيئون نِصبة الانسان والحيوان وصناعتهم الهندسية في منتهى البساطة

اما الطب فلا مدرسة لهُ عندهم يُتلقى فيها ولكن من اراد تعلُّم هذه

الصناعة لزم احد الاطباء فيعلمه اصولها واسرارها وكل علم الطبيب عندهم ان يدرس حركة النبض . واما التشريح فلا اثر له عندهم لانه محرَّم عليهم ديناً واكثر علاجهم بغُلايات العقاقير والمنعشات والحِمية وعوض الفصد يستخرجون الدم من ظاهر الجلد بان يفركوه بقطعةٍ من النحاس فركاً شديداً وقد يغرزون ابراً في مواضع من البدن فيكون الشأن في معرفة المواضع التي تغرز فيها وكيفية اخراجها

اما ديانة الصينيين فانهم يقولون بمبدأين احدهما للخير والآخر للشرّ وان هذين المبدأين اتحدا فتولدت عنهما الكائنات وكان اول حيٍّ خرج من العدم پان كو وهو ابو البشر وكان نصفه على شكل الانسان والنصف الآخر على خلقة البهيمة ولبثت سلائله كذلك ادهاراً متطاولة وكانت تتطور شيئاً فشيئاً بتدريج الطبيعة حتى بلغت ما هي عليهِ اليوم من كمال الخلقة والعقل

واقام الصينيون دهراً مديداً يعبدون الهاً واحداً وهو الناشئ عن اتحاد المبدأين ويسمونه شُنغ تي ثم حدثت عندهم عبادة الارواح وتطرقوا منها الى عبادة الاوثان فاكثروا من المعبودات من كل نوع وألَّهوا المشاهير من اسلافهم . وفي اوائل القرن الخامس قبل الميلاد ظهر لوشيوس فنقح شيئاً من عقائدهم ووضع لهم شرائع وعبادات لكنه اقرّ عبادة الارواح والعظماء . وهو من جملة من ألَّهوه بعد موتهِ ويقولون انه وُجد قبل خلق السماء والارض وانه تقمص شكل البشر واستحال عدة مرات وهو عندهم مثال العقل الاعلى . اما مولده فكان سنة ٦٠٤ قبل الميلاد وفي كتبهم ان

امهُ حبلت بهِ احدى وثمانين سنةً ووُلد وقد ابيضّ شعرهُ ولذلك سمي لوشيوس (لاو تسو) اي الطفل الاشيب . ولهُ كتابٌ يسمى توتكين هو مستودَع جميع حكمتهِ وهو يبحث عن اصل الكائنات ومصيرها ويردّها باسرها الى علةٍ اولى وفي كلامهِ مواضع تدلّ على انهُ كان يذهب الى التثليث

وجآءَ بعدهُ كنفوشيوس وكان مولدهُ سنة ٥٥١ قبل الميلاد ونسبهُ ينتهي الى الامبراطور هُنغ تي ولم يكن من مذهبهِ البحث عما وراء الطبيعة ولا الفلسفة على علل الاشياء وطبائعها ولم يكد يجيء في كتبهِ شيءٌ عن صفة الله ولا النفس ولكن كل كلامهِ كان مقصوراً على وصف السيرة التي يجب ان يكون الانسان عليها في الحياة الدنيا وما يتعين عليهِ اكتسابهُ من العلم والفضائل اقتداءً بالسلف واستناناً بسنة من تقدم من حكمآئهم وملوكهم وهو الامر الذي تقرب بهِ من قلوب الصينيين فمالوا اليهِ بكليتهم وما برح ملوكهم ينزّلون انفسهم منزلة تلاميذ لهُ وبمذهبهِ تمذهب العلمآء وتبعهم السواد الاكبر من العامة حتى غلب على مذهب لوشيوس فكانت بين اتباع المذهبين مناصباتٌ طويلة تمكن في اثنآئها اصحاب لوشيوس من اغرآء الامبراطور شي هُنغ تي فنكّل باصحاب كنفوشيوس واحرق كتبهم ولم يسلم منها الا كتابٌ واحد هو مرجع اتباعهِ الى اليوم

ثم انهُ في اواسط القرن الاول للميلاد طرأ على البلاد الدين البوذي من ناحية الهند فدخل الناس فيهِ افواجاً وتكاثر دعاتهُ واتباعهُ بحيث انهُ لم يدخل القرن الثالث حتى عمّ اكثر بلاد الصين . وكان سببهُ فيما ذكروا انهُ جآءَ في بعض كلام كنفوشيوس حديثاً عن نفسهِ انهُ انما أُرسل ليكون

ممهداً لزعيمٍ كبير سيأتي من ناحية المغرب فلما كان التاريخ المذكور جهز الامبراطور مُنغ تي سفناً وامرها ان تتوجه غرباً تبحث عن هذا الزعيم فذهبت مسافةً طويلة في البحر حتى انتهت الى احدى جزائر الهند فارست عندها ووجدت فيها تمثالاً لبوذا فحملتهُ الى الصين وكان ذلك سنة ٦٥ للميلاد ومذ ذاك انتشرت عبادة بوذا وعُرف عندهم باسم فُوا والمذهب مشهور فلا حاجة الى الاطالة بهِ . ومع انتشار هذا المذهب اليوم وعمومهِ فان عبادة السماء وكنفوشيوس لم تبرح شائعةً في المملكة لانها مذهب الامبراطور وخاصتهِ غير ان هؤلآء كلهم انما يتمذهبون بهِ بحسب الظاهر لمكانهم من البلاط واما في دِخلتهم فاكثرهم على مذهب فوا وبيوتهم مملوءَة من اصنامهِ

ونمسك القلم على هذا القدر من الكلام على هذه المملكة العظيمة وفي كل ما ذكرناهُ في هذا الفصل ولا سيما في فلسفة كلٍّ من هذه المذاهب كلامٌ طويل لا يسعنا الخوض فيهِ في هذا المقام فاقتصرنا منهُ على ما ذُكر طلباً للاختصار

كلام صحيّ في الشعر

لحضرة النطاسي البارع الدكتور اديب افندي الزيات

(تابع لما قبل)

تقدم لنا في عددٍ ماضٍ من هذه المجلة ذكر الطرائق الواجب اتباعها في غسل الشعر وتنظيفهِ والآن نأتي على تتمة ما في هذا الفصل كما وعدنا استيفاءً للفائدة فنقول

لا يتم تنظيف الشعر الا بادوات مخصوصة كما هو معلوم واكثر هذه الادوات استعمالاً المشط والشعرية (الفرشة) وقد يستغنى عن المشط في الاطفال فيكتفى في تمشيطهم بعد غسل الرأس بان تُمَرّ فرشاةٌ ناعمة على الشعر مرًّا خفيفاً ثم يُتدرج في الفرشاة من الجنس الناعم الى الخشن بحسب تقدم الطفل في السن وعلى كل حال فلا يجوز الفرك بها الى حدٍ يتهيج معهُ جلد الرأس

الا انهُ متى طال شعر الولد فحينئذٍ لا يُستغنى عن المشط لتخليص الشعر وتهويتهِ وتسريحهِ في جهتهِ الطبيعية . وافضل الامشاط ما كان متفرق الاسنان غير حادّها مصنوعاً من موادّ غير معدنية كسن الفيل وعظم السمك والباغة والصدف وما شاكلها وينبغي ان تكون اسنان المشط متساوية في الطول والغلظ ناعمة الملمس بغاية النظافة بحيث انها عند التسريح لا تكسّر الشعر ولا تقتلعهُ ولا تحمّلهُ ادراناً مما فيها اذا كانت غير نظيفة . واما الامشاط الدقيقة الاسنان فالأولى عدم استعمالها في الطبقة الوسطى والعالية من الناس لان غايتها تنظيف الرأس من القشور وافضل منها الدهونات والغسل والفرشاة على ما قدمنا من كيفية استعمالها ومع ذلك فاذا استعملت فلا تُمرّ في الشعر الا بعد ان يخلص بالمشط ذي الاسنان المتفرقة

اما شروط الفرشاة فيجب مع النظافة ان تكون قاسية وخُصَل الشعر فيها مرتَّبة بحيث ان الوسطى منها تعلو على المتطرفة بشكل محدَّب غير ملززة الشعر حتى اذا مرّت في الرأس لا تعلق بالشعر ولا توجب جذبهُ وتُستعمل بعد ان يسرَّح الشعر بالمشط بحسب جهة منبتهِ الطبيعي مع التحامل

المعتدل بحيث يشعر الانسان بحرارة خفيفة عذبة في الجلد وفي النهاية يُمَرّ على الشعر فرشاةٌ ناعمة دقيقة فتكسوهُ لمعاناً

هذا فيما يتعلق بادوات التمشيط وكيفية استعمالها وبقي ان نبين كيف يجب ان يُقَصّ الشعر عند الرجال وكيف يُرتَّب ويُضفر عند النسآء على الطرق الصحية بقطع النظر عن الازيآء (المودات) المختلفة باختلاف الامم والعوائد

قد درج اكثر الرجال في هذه الايام على الاستقصآء في قصّ الشعر اي على ان يقصروهُ كثيراً وهو امرٌ ينهى عنهُ اكثر علمآء هذا الفن لان الشعر انما هو غطآء خُلق لوقاية المخ والدماغ فاذا كان قصيراً كان اقرب الى السقوط منهُ اذا كان طويلاً ولهم على ذلك ادلة اهمها كثرة الصلع في الرجال وندورهُ في النسآء . ومنهم من يرتئي العكس ذهاباً الى ان في تكرار القصّ تنبيهاً لحياة الشعر وانهُ اذا كان قصيراً كان اسهل تنظيفاً فيكون بذلك ابعد عن الامراض المعدية . ولعل الاصوب ما ذهب اليهِ الاستاذ الشهير بروك وملخصهُ انهُ ينبغي ان يكون الشعر قصيراً عند الاولاد الى الثامنة من سنيهم لكي يكون الرأس نظيفاً وهكذا تُجتنَب الامراض الشعرية الكثيرة الحدوث في هذه السن واما فيما فوق ذلك فلا موجب لتقصيرهِ الا اذا اختلّ شرط النظافة كما انهُ لا موجب لقصّ شعر البنات فوق السن المذكورة الا اذا كان يتعذر تنظيفهُ . ويجب ايضاً تقصير الشعر عند اولاد المدارس لعدم توفر الوقت اللازم للعناية بتنظيفهم فضلاً عن تعرضهم للعدوى المرضية مماقد لا تتسنى ملاحظتهُ لاوليآء امورهم ولا يؤمن

شرّهُ الا اذا كان الشعر قصيراً

واما الشبان فلا حرج عليهم ما دام شعرهم نظيفاً خالياً من المرض لكن اذا حدث دآءٌ في الشعر فلا بدّ من قصهِ ليتمكنوا من مداواتهِ . وعلى كل حال يجب ان يُمشَط الشعر الى جهة منبتهِ الطبيعي فيبقى سلساً ليّناً ولذلك فان قصّ الشعر على الشكل المسمى « بروس » اي شكل الفرشاة مضرٌّ لانهُ يحوّلهُ عن ميلهِ الطبيعي ويكون سبباً لسرعة الصلَع كما ان كيّ الشعر بالحديد مؤذٍ من هذا القبيل فضلاً عن انهُ يميت اطراف الشعر فتتشعّب ثم تتكسر كما لا يخفى

اما كيفية ترتيب الشعر وتمشيطهِ عند النسآء فهو بحث من الاهمية بمكان لانهُ كثيراً ما ينشأ عن عدم معرفة ترتيب الشعر على الطرق الصحية بُقَعٌ من الصلع في قمة الرأس وسببها في الغالب شدة جذب الشعر واطالة الضغط عليهِ بالدبابيس والامشاط

فالطريقة الحسنى ان يُضفَر الشعر ضفراً ليناً ثم يُرسَل على الظهر عند البنات او يطوى على الرأس ويُركز بدبابيس من المطّاط (الكاوتشوك) او الباغة . ولا بدّ في كل حال من اتباع المبدأ المذكور قبلاً وهو انهُ كيفما كانت طريقة التمشيط فلا ينبغي ان تكون الا بحسب ميل الشعر الطبيعي . وكلما تمكن النسآء وخصوصاً في المنزل من حلّ شعورهنَّ وارسالها على الكتفين فلا يتأخرنَ لان في ذلك راحةً للشعر وتجديداً لقوّتهِ

وفي الختام لنا كلمة في الصبغات الشعرية نقولها تذكيراً لمن يهمهم ذلك وهي ان اكثر علمآء هذا الفن يحظرون استعمالها الا في بعض الاحوال

المرضية كالعلة المسماة بالسبورة الشعرية والسبورة الدهنية فان صبغة الحنآء تمنع فيها سقوط الشعر وتزيد في نموّهِ والحنآء كثير الاستعمال في الشرق وقد ابتدأ الغربيون يستعملونهُ لانهُ اقل ضرراً من غيرهِ من سائر انواع الخضاب . واما ما بقي من الدهونات والصبغات الشعرية فالبعض القليل منها حسن واكثرها مضرّ وعلى كل حال فالجيد منها لا يلائم كل الامزجة فلا بدّ من الاحتراس في استعمالها وفي هذا المعنى كلامٌ طويل سنعود اليهِ في وقتٍ آخر مع البحث في اسباب الشيب

واخيراً فان الدهونات التي يجوز استعمالها في حالة الصحة عند ما يكون الشعر جافاً قليل المادة الدهنية هي زيت اللوز الحلو وزيت الخروع صرفاً او مضافاً اليهِ مخ العظم البقري المحضَّر ويعطر بعطر البرغموت او عطر اللاوندة او بلسم بيرو وابسط من كل هذا زيت الزيتون القديم . وعلى كل حال فمن الضروري تجديد هذه الزيوت مرةً بعد اخرى لئلا تختمر فتفسد وتحدث عوض الفائدة ضرراً والله الواقي

السخرة في الديار المصرية

نقتضب هذا الفصل اجابةً لاقتراح احد مشتركينا الاعزاء نورد فيهِ ما تيسر لنا الوقوف عليهِ من تاريخ السخرة في هذه البلاد من لدن عهد المرحوم محمد علي باشا الى الزمن الحاضر وقد اقتبسنا جلّ ما فيهِ عن المراجع الاصلية مع الاستناد الى بعض التواريخ الموثوق بها من مؤلفات الاوربيين وقبل ان نخوض في هذا البحث لا بدّ لنا ان ننبه الى ان السخرة على

ضربين احدهما ما كان لمنفعةٍ شخصية يُقسَر فيها الضعيف على خدمة القويّ كبناء دار او غرس بستان وهي بابٌ من ابواب الظلم لا مسوّغ لها بالاجماع والضرب الثاني ما كان لمصلحةٍ عامّة كاهلاك الجراد وسدّ الثغور وتكون عدلاً بمقدار ما يكون فيها من المساواة والبعد عن الاجحاف بمصالح الافراد . فأما الضرب الاول فقد مضى عهده مع الاولين ممن بنوا الاهرام ورفعوا المسالّ وخُتم بعهد المماليك الذين كانت لهم آحاد الرعية عبيداً واموالهم نهباً مباحاً وليس في شيء من غرضنا في هذا الموضع . واما الثاني فاشهر ما فيهِ في هذا القطر الاعمال المتعلقة بالريّ من نحو حفر التُرَع واقامة الجسور وتعهُّدها في اوقات الفيضان لما في ذلك كلهِ من التكاليف الجسيمة ورجوع المنفعة منهُ الى عامّة اهل البلاد وفيها انحصرت السخرة في ايام المغفور لهُ محمد علي باشا الا انهُ تجاوز فيها حدود الاعتدال الى ما اضرّ بمصلحة الزراعة لانهُ لم يكن يعفي احداً من الخروج للعمل ولا سيما في ايام النيل مما كان يترتب عليهِ خلوّ الاراضي من العمّال وتعطيل الاعمال الزراعية الى ان ينقضي زمن السخرة

ثم لما كانت ايام سعيد باشا احدث فيها بعض التعديل بان حصرها في عددٍ معلوم من الافراد يؤخذ على نسبةٍ مفروضة بحيث لا تعدم الاعمال الزراعية قسطها من العمّال الا ان الخلل المتفشي في احوال الحكومة لذلك العهد حال دون البلوغ الى تمام هذا المقصد. ولبث الامر على ذلك الى عهد اسمعيل باشا وكان على ما هو معلوم من الظهور بالمظهر الاوربي والميل الى جعل البلاد المصرية كقطعةٍ من اوربا فامر بالغاء

السخرة من اصلها الا ان ذلك وافق ايام اشتغال شركة دليسبس بحفر خليج السويس فاضطرَّتهُ شركة الخليج الى ردّ السخرة عملاً بالاتفاق الذي كان بينها وبين سعيد باشا فعادت . قلنا ومن الناس من يذهب الى ان من اهمّ الدواعي التي عادت بالفشل على فتح برزخ بناما انهم قاسوهُ على فتح برزخ السويس فقدَّروا نفقات ذلك على نفقات هذا من غير ان يفطنوا للسُخَر التي اعانت على اتمامهِ . ثم انهُ بعد ان تمّ حفر الخليج عاد اسمعيل باشا فقرّر السخرة بموجب امرٍ اصدرهُ في ١٨ شوّال سنة ١٢٨٨ وعليها قامت جميع الاعمال التي تمت في ايامهِ واهمها بعد فتح الخليج الترعة الابراهيمية التي انشأها بالمنيا لريّ اراضي الدائرة السنية التي كانت من املاكهِ الخصوصية ثم ترعة الاسمعيلية التي تعهد دليسبس بحفرها لجرّ الماء العذب الى المدينة المذكورة . وكان لما الغى السخرة قد ضرب في مقابلة الغائها ضريبةً على البلاد فكان يجبي الضريبة والسخرة مستمرّة

ولما كانت نوبة توفيق باشا اصدر امراً في سنة ١٨٨٠ بتعديل احكام السخرة فجعلها عامّةً لجميع سكان القطر ممن تعود عليهم منفعةٌ من الاعمال السنوية مع التساهل بقبول بدلٍ مالي عند تعذر مباشرتها بالفعل . وكان ناظر الاشغال يومئذٍ علي باشا مبارك فلما كانت السنة التالية رفع تقريراً الى مقام الخديوية يشكو فيهِ من تجويز امر البدل لانهُ وجد ان ذلك يفضي الى بوار المصلحة اذ يتوفر المال وتُعوِز الرجال ولا سيما وان الاعمال في زمن الفيضان اعمالٌ معجلّة لا تحتمل الارجاء ويطلب تعميم السخرة على كل من ينتفع باعمال الريّ من سن ١٥ الى ٥٠ ما خلا العلماء

والفقهآء وطلبة العلم وسائر من يدخل تحت هذا التعريف ثم خدام المساجد والقسوس ورؤساء الاديان وخفراء البلاد وسائر الذين لا اراضي لهم في القطر وان يُحصَر حق اداء البدل في فئاتٍ معلومة منها اهالي العزب والجفالك والاعراب العاملون في الاراضي الاميرية

ثم انهُ في ١٩ دسمبر سنة ١٨٨٩ صدر امرٌ عالٍ بالغاء السخرة وحصرها في خفارة الجسور ايام الفيضان واستبدالها في غير ذلك بضريبةٍ مالية على الاملاك لا تجاوز اربعة غروش ونصفاً على كل فدان ولا يتعدى مجموعها ١٥٠ الف جناي وان تخصص الحكومة من ميزانيتها ٢٥٠ الف جناي تُرصَد مع مال الضريبة للانفاق على سائر اعمال الريّ

وفي ٢٨ يناير سنة ١٨٩٢ صدر امرٌ آخر بالغاء الضريبة وضمّ الاموال اللازمة على الميزانية العمومية واقترضت الحكومة يومئذٍ مليون جناي للقيام بهذه النفقة ومذ ذاك تقررت جميع نفقات الري على ميزانية الحكومة وهو الجاري العمل بهِ الى هذا اليوم

وجملة القول ان السخرة كانت قديماً عامةً لكل عملٍ من اعمال الريّ كحفر التُرَع وتطهيرها وانشاء المصارف والبرابخ وتوثيق جسور النيل والحياض وخفارة الجسور والقناطر ونقل الادوات اللازمة لها وقد انحصرت اليوم في خفارة الجسور والقناطر ايام الفيضان بمعنى ان على الاهالي ان يعيّنوا اناساً منهم يخرجون الى جسور النيل لمراقبة مياه الفيضان واذا خيف حدوث خطرٍ ان ينبهوا حكومة الناحية الى تداركهِ وهذا كل ما بقي من السخرة لعهدنا الحاضر

اصل البترول

لا شك ان اكتشاف البترول ليس بالامر المحدث وان لم يشتهر الا من عهدٍ قريب وكذلك استخدامهُ كان مألوفاً من عهدٍ بعيد فان نيران المجوس في باكو ما برحت توقد منهُ منذ آلافٍ من السنين . ثم انهُ في القرن الثامن عشر كانت بعض مدائن ايطاليا توقدهُ للاستصباح وكان قد اكتُشف بعض ينابيعهِ في انشيانو بالقرب من پارما الا انهُ ما زال الى اواسط القرن التاسع عشر مرغوباً عنهُ ولم يتنبه الناس لهُ حتى اكتشف الاميركان ينبوع وادي كناوها ومذ ذاك اخذ ينتشر استعمالهُ وفي سنة ١٨٥٠ فُتحت اول بئرٍ لهُ في تيتوسفيل من بنسلڤانيا فخرج منها مجرى بغلظ زند الرجل فهبَّت الرغبة في حفر منابعهِ بمثل ما كان عند اكتشاف ذهب كاليفرنيا

اما اصل البترول فلم يقع الكيماويون والطبيعيون منهُ على حقيقةٍ ثابتة لتعارُض الادلة فيهِ وانتقاض بعضها ببعض على ما سنذكرهُ . وقد وُجد بالتحليل انهُ مركبٌ من ثلاثين صنفاً من المواد الهدروكربونية وتركيبها يختلف تبعاً للآبار المستخرج منها . فذهب قومٌ منهم الى انهُ مادةٌ تشبه القطران المستخرج من الصنوبر ونحوهِ وانهُ نشأ عن تحلل بعض المواد النباتية في جوف الارض او في اعماق البحار في العصور الاولى ودليلهم في ذلك وجود منابع كثيرة من البترول في الاراضي التي تكثر فيها معادن الفحم الحجري . غير ان علماء طبقات الارض لم يوافقوا على هذا القول لانهم وجدوا البترول اكثر ما يوجد في الاراضي التي سبقت تكوُّن الفحم

الحجري وبالتالي التي ليس فيها بقايا نباتية

وذهب غيرهم الى ان اصل البترول من موادّ غير آليّة فرضوا ان المعادن القلوية المنتشرة في باطن القشرة الارضية كالصوديوم والبوتاسيوم والليثيوم بمخالطة الحامض الكربونيك لها تنشأ عنها موادّ اذا اتحدت مع المآء كان عنها الاساتيلين وهو باتحادهِ مع الهدروجين الخالص ينشأ عنهُ مركبات هدروكربونية هي التي تتكوَّن منها اكثر مادة البترول . وهذا ايضاً لم يسلم من النقض بادلةٍ اخرى من استقرآء طبقات الارض

وذهب آخرون الى ان البترول من اصل حيواني وانهُ ناشئٌ عن انحلال الحيوانات التي كانت تسكن البحار الاولى ولبث هذا القول امراً نظريًّا الى ان اكتُشف شيءٌ من البترول عند شواطئ البحر الاحمر وهي مؤلفة مما يلي السويس الى عدن من ارصفة مرجانية يتكون منها صخورٌ كلسية متخلخلة البنآء مكلسة بحرارة الشمس فاذا ثُقِب ثقبٌ في هذه الصخور ولو قليل العمق اجتمع فيهِ سيّالٌ بطيء هو البترول

ثم بنى البروفسور انجلر على ذلك فعمد الى بعض البذور الحيوانية وعرّضها للتقطير في انآءٍ مسدود وتحت ضغطٍ عنيف فكان لهُ مادةٌ تقرب من النِفط الخام . ثم عرّض زيت السمك للعمل نفسهِ فكان عنهُ مادةٌ لا يكاد يُفرَق بينها وبين البترول الاميركاني فكان في هذا الامتحان مقنعٌ للكيماويين وعلمآء طبقات الارض جميعاً

ولا يخفى ان البحار من اكثر البيئات ازدحاماً بذوات الحياة من الحيوان فلا يُستغرَب ان يجتمع في دَرَكها مقادير من زيت السمك يتكوَّن

عنها مثل هذه الينابيع الغزيرة من البترول فان هناك الوفاً لا تحصى من الجثث التي اكثرها مرجانية متخاخلة البناء تغطيها طبقةٌ عظيمة من الطفال فينشأ عنها مع توالي الزمن نفس ما نشأ بالتقطير . واظهر ما يكون ذلك في البحار المنقطعة التي تتبخر شيئاً فشيئاً كبحر قزوين الذي في جوارهِ اغزر ينابيع باكو فان هذا التبخر المتواصل يكون سبباً في تجمع الجثث الحيوانية الى الدرَك الاقصى وبعد ان تذهب الحياة الحيوانية منها بتمامها يرسب الملح على تلك الجثث بهيئة طبقاتٍ بلورية واخيراً يتحوَّل قعر البحر الى ارضٍ يابسة

على انهُ لا ينبغي ان يُجزَم بان اصل البترول حيواني صِرف ولا يمتنع ان يكون نباتيًّا او جماديًّا فان الطبيعة تتوصل الى انشآء الشيء الواحد من طرقٍ شتى وقد يكون اصل البترول مشتركاً من الموادّ الثلاث

البارود والحوادث الجوّية

لا يخفى ان من اسباب المطر ان تلتقي ريحان متناوحتان اي متقابلتا المهبّ فترتفعا في موضع التقائهما الى طبقةٍ من الجوّ شديدة البرد فتنعقد الرطوبة المنتشرة فيهما وتسقط مطراً وهذا هو السبب في سقوط المطر غب الرعد لانهُ عند انطلاقهِ يُحدِث فراغاً في الهوآء ثم تندفع الريح من كل جهةٍ لتسدَّ ذلك الفراغ فتلتطم ويحدث عند التطامها ما ذُكر

وقد رُوقِب بعد المواقع الشديدة في الحروب التي يكثر فيها اطلاق البارود انهُ يعقبها على الغالب مطر وذلك بالسبب عينهِ لان البارود عند

انطلاقهِ يفرّق اتصال الهوآء ثم يرتدّ الهوآء بعنفٍ شديد فاذا تعددت الطلقات واتجهت في وقتٍ واحد الى نقطةٍ واحدة او نقطٍ متقاربة فعلت فعل الرعد فعقبها المطر وقد يكون سيولاً . وقد بنى بعضهم على هذا امكان استخدام هذه الذريعة في استنزال المطر عند احتباسهِ وامتحن ذلك بعض اهالي الولايات المتحدة بان اطلقوا المدافع على بعض السحب المنتشرة فلم تلبث ان تساقط عنها مطرٌ غزير . وتكرر هذا الامتحان بعد ذلك في عدة مواضع من الولايات المذكورة كالتكساس وأوهايو تارةً باطلاق المدافع وتارةً باطلاق الديناميت من المناطيد المقيدة لكن وُجد انهُ كثير النفقة الى ما يفوت قدر المنفعة المترتبة عليهِ لان الدفعة الواحدة من المطر لا تكون نفقتها اقلّ من عشرين الف دولار

ثم انهم كما استخدموا اطلاق المدافع في استنزال المطر استخدموهُ ايضاً في صرف البرَد عن المغارس والاراضي الزراعية . واول ما امتُحن ذلك في بلاد النمسا في بلدةٍ يقال لها وِنداش على يد رجلٍ من العظمآء كانت لهُ كرومٌ واسعة في البلدة المذكورة وكان كثيرٌ منها يتلف بالبرَد فنصب على قمم التلال المحاذية لارضهِ ست بطاريات كل واحدة منها مؤلفة من عشرة مدافع ضخمة ولما لاحت لهُ اول سحابة تخيل فيها وجود البرَد امر باطلاق المدافع عليها فلم تلبث ان انحلّت وتبددت . وقد وُجد بالامتحان ان اطلاق ثلاثين دفعة كافٍ لان يقي مساحة ٥٠ الى ٦٠ هكتاراً من الارض (الهكتار عشرة آلاف متر مربع) بنفقةٍ لا تتجاوز ٢٠٠ فرنك

وهذه الطريقة شائعة اليوم في ايطاليا في استنزال المطر وصرف البرَد

جميعاً وقد تألفت لها شركاتٌ كثيرة في البلاد لما آنسوا من نفعها . وربما استعملوها عند اشتداد الحرّ لترطيب الجوّ وتحريك الرياح عند ركودها وكثيراً ما تُستخدَم في تقويض الاعاصير اللولبية ولا سيما التي تثور منها في البحر بان يطلقوا عليها مدفعاً قوياً فتنحلّ وتتبدَّد قوّتها في انحاء الجوّ

الفونغراف

وقفنا على الوصف الآتي لهذه الآلة العجيبة من انشاء حضرة الكاتب الشاعر البليغ مصطفى بك نجيب وكيل ادارة الداخلية في الحكومة المصرية وهو ضربٌ من الشعر المنثور الذي يزري بالدرّ المنظوم في نحور الحور بل هو من انموذجات بلاغاتهِ الحقيقة بان يتحداها كتّاب العصر وينسج على منوالها المولعون باساليب النظم والنثر قال حفظهُ الله

هو مثال القوّة الناطقة من غير ارادةٍ سابقة يقتطف الالفاظ اقتطافا ويختطف الصوت اختطافا مطبعة الاصوات ومرآة الكلمات ينقل الاقوال من ناحيةٍ الى ناحيه نقل كلام عُمَر رضي الله عنهُ الى ساريه اصدق من الصدى في نقلهِ واعادةِ الصوت على اصلهِ كانهُ الحرف عن يد الطابع والوتر عن يد القارع لو تقدم في مرتبة الزمن لما احتجنا في الأخبار الى عنعنه ولا في الدعاوي الى بيّنه بل كان يُسمعِنا كلام السيد المسيح في المهد وصوت عازر من اللحد وكانت استودعتهُ الفلاسفة حكمتهم وانشدهُ الشعراء كلمتهم فسمعنا منهُ غرائب اليونان وبدائع الرومان وربما اسمعنا خُطَب سحبان وشعر سيدّنا حسّان

بذلك اللسان واصبح وجود اثر الانسان غير محدودٍ بزمنٍ من الازمان فلله درُّهُ من تلميذٍ يستوعب ما عند المعلم في لحظَه ويعيد قولهُ ناقلاً صوتهُ ولفظَه

وقد وجدتَ مكان القول ذا سعةٍ فان وجدتَ لساناً قائلاً فقلِ

نديم ليس فيهِ هفوة النديم سمير لا يُنسَب الى تقصير تُسكِتهُ وتستعيدُه وتذمّهُ وتستجيدُه وتنقصهُ وتستزيدُه وهو في كل هذه الاحوال راضٍ بما يقال لا يكلّ من تحديث ولا يملّ من اعادة حديث نمّام كما ينمّ لك ينمّ عليك وينقل الى غيرك كما ينقل اليك فهو المصوّر لكل فنّ المتكلم بكل لغة المحدّث عن كل انسان المؤرّخ لكل زمان الشاعر الناثر المغنّي العازف لا تعجزهُ العباره ولا يجهدهُ الاداَء ولا يضيرهُ اختلاف شكل ولا تبايُن اصل بل تعدّت شدة حفظهِ البشرية من اللغات الى حفظ اصوات العجماوات الى حركة اصطكاك الجمادات فلله مخترعهُ الذي انشأهُ على غير مثال والله يخلق ما لا تعلمون وهو العزيز المتعال

﴿ المرّاش ومينار ﴾

كنا نودّ ان نسوق بقية هذا النقد الى آخرهِ حتى يكون انموذجاً لكل مطلّعٍ عليهِ يعلم منهُ مبلغ اولئك « المستعربين » من العلم بهذه اللغة التي يدّعون انهم قد استولوا على ازمتها وصاروا اولى بها من اربابها وائمتها ولكنا رأينا ان الامر قد طال الى ما خشينا ان يؤدّي الى ملل القرآء وفي

القدر الذي اوردناهُ كفايةٌ للمستدلّ . بيد أننا حرصاً على بقاء هذا الاثر ورغبةً في وقوف اولئك القوم على ما في رواية الكتاب وترجمتهِ من التحريف والشطط رأينا ان نطبع هذا النقد في كتابٍ مخصوص بحيث يكون الحصول عليهِ اقرب منالاً والاحاطة بما فيهِ من المآخذ ايسر مطلباً والله وليّ التوفيق

اسئلة واجوبتها

الفيوم — ما المراد بالحجر الفلسفي عند الكيماويين الاولين ومن اي شيءٍ يتركب احد المشتركين

الجواب — هو ما يسميهِ كيماويو العرب بالاكسير والمراد بهِ مادّةٌ تحيل النحاس الى فضة والفضة الى ذهب . واما تركيبهُ فزعم بعضهم انهُ يتكوَّن من الندى بعد تعريضهِ زمناً طويلاً للشمس وقال آخرون انهُ يتركب من المعادن وخصوصاً الزئبق بعد تطهيرها من الكبريت وقيل من الكبريت نفسهِ بعد تخليصهِ من المعادن . ولكنهُ على الصحيح اسمٌ بلا مسمىً لا يُعرَف ما هو ولم يتوصل اليهِ احد وقد اشتغل بهِ عالمٌ لا يحصى من المتقدمين من عهد المصريين الاولين ومن تلاهم من اليونان والعرب وغيرهم الى اواخر العصور الوسطى والى اليوم لا يزال اناسٌ يبحثون عنهُ فيضيعون اعمارهم في التماسهِ ولا يحصلون منهُ الا على الخراب

القاهرة — قرأت في بعض الكتب ان المرحوم الخديوي اسمعيل باشا كان قد الغى السخرة عند جلوسهِ على الاريكة الخديوية الا انني اعلم ان السخرة لم تزل باقية الى عهد غير بعيد وان شركة خليج السويس استعملتها مدةً بعد قرار الخديوي الاسبق وان ابطالها في اشغال هذه الشركة أدّى الى منازعات واخيراً الى تعويض أُلزمت الحكومة المصرية ان تدفعهُ اليها بناآءً على حكم نابوليون الثالث الذي اختارهُ الطرفان حكماً. فرجآئي ان تتكرموا علينا بازالة هذا الالتباس وبشرح تأريخ السخرة بالتفصيل الممكن فان هذه المسئلة تهم الكثيرين ولم نجدها موضحةً كما يجب

يوسف النحاس

الجواب — ترون تفصيل هذه المسئلة في مقالةٍ مخصوصة في هذا الجزء

آثار ادبيّة

الدائرة — مجلةٌ ادبية تاريخية فكاهية تطبع في مدينة نيويرك لمنشئها الاديب عيسى افندي ميخائيل الخوري وقد وردتنا الاجزآء الاولى منها فوجدناها تشتمل على عدة مقالات ونُبَذ رائقة في الاغراض المشار اليها. وهي تصدر مرتين في الشهر في ست عشرة صفحة وقيمة اشتراكها في الولايات المتحدة ريالان اميركيان وفي غيرها ثلاث ريالات فنتمنى لها الانتشار والثبات

فكاهات

رواية

السرّ المرصود

في كل مملكةٍ من الممالك الاوربية طائفةٌ من الشُرَط قد اشتهرت بما تبديهِ من المهارة والحذق في تأدية وظائفها واكتشاف خفيات الامور وفيها ايضاً طائفة اخرى من الشِحنة السرية توكل اليها المهمات التي تعجز الشُرَط عن ادراكها وهذه الطائفة الاخيرة قد لا تكون على نفقة الحكومة بل هي شركاتٌ قائمة بنفسها تكلفها الناس اغراضها وتدفع لها الاجور التي يقع الاتفاق عليها

وكان في مدينة لندن رجلٌ من دهاة الشُرَط يدعى جيمس قد اشتهر بقوّة ذكائهِ ونوادرهِ العجيبة في كشف الخفايا وكان لهذا الرجل ابنةٌ وحيدة تدعى هنريت لها من العمر عشر سنوات وهي مع صغر سنها آيةٌ في الذكاء وتوقد الخاطر وقد زينها المولى باجمل صورةٍ واحسن قدّ . وكان لاحد سراة الانكليز من أُسرة ملبروك فتىً في الثالثة عشرة من العمر يدعى هنري ولا يقلّ عن هنريت كثيراً في الجمال وحسن الشمائل فبصر بها يوماً وكانت مع والدتها في احدى حدائق النزهة فأُعجب بجمالها وكأن جاذباً

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

جذبهُ فدنا وحيّا بلطفٍ ثم سار مع الفتاة ووالدتها في الحديقة وهم يتحادثون ولم يطل الوقت كثيراً حتى اخذت منهُ عوامل الحب وافتتن بحسن الفتاة ورقة اخلاقها . ولما افترقا وذهب كلٌّ الى منزلهِ شعر هنري بشيء في فؤادهِ لم يشعر بهِ من قبل فلم يذق طعاماً ولم يزر جفنهُ كرًى وما صدّق ان جآء ميعاد الامس فتوجه الى الحديقة وكلهُ عيون فرأى فاتنة لبهِ على مقعدٍ فجلس بجانبها وجعل كلٌّ منهما ينظر الى الآخر باعينٍ تغطيها الجفون المتكسرة وانفاسهما تتصعد ووجناتهما تتقد . ولم يتمكن هنري من كتمان ما في صدرهِ فانطقهُ الوجد وباح للفتاة بحبهِ ورأى منها موافقةً على ذلك فتكلما كلاماً مقدساً وافترقا بعد ان تواعدا واشهدا السمآء على الاقسام التي نطقا بها

واخذ الحب يتمكن من فؤاد هنري وينمو مع الايام ولما اشتدّ بهِ الهيام ولم يعد في طاقتهِ الصبر على الكتمان كاشف والدهُ بما خامرهُ من حب الفتاة فوبخهُ الوالد اولاً لانهماكهِ بالحب على صغر سنهِ وثانياً لتعلقهِ بابنةٍ هي دونهُ مقاماً وبين درجات الأُسرتين بونٌ شاسع . فقال هنري اما صغر السن فليس مما يمنع الحب اذ لا فرق فيهِ بين الكبير والصغير واما امر النسب فانني لا ادرك هذه الاوهام المتسلطة على عقول كبرآئنا واذا كان الرجل فقيراً فهل يخرج عن كونهِ من النوع الانساني وهل يعتبر الرجل حيواناً بريًّا ان لم يكن معهُ تاج الكنت او لقب اللرد . اما انا فانني ارى في مالكة فؤادي ملَكاً سماويًّا ولا ابيع قلامةً من ظفرها بكل ما تملكهُ لردات انكلترا وشرفآؤها . فزجر الوالد ابنهُ بشراسةٍ واوسعهُ شتماً

ثم قال لهُ اني امهلك يا هنري الى مسآء الغد فاما ان تأتي اليَّ وقد نزعت هذه الترَّهات من مخيلّتك او تستعد لان تُطرَد من بيتي هذا كالولد العقوق مصحوباً بلعنتي الابدية

فخرج هنري من حضرة والدهِ حزين النفس دامع الطرف فخلا بنفسهِ في غرفتهِ وجعل يفكر في ما عساهُ ان يفعل وهل في امكانهِ طرد هذه الاوهام العجائزية من رؤوس الاشراف . ومرَّت بهِ الساعات مرَّ الدقائق فلم يشعر الا وقد اقترب موعد مواجهتهِ لابيهِ في اليوم الثاني فدخل عليهِ فاذا هو مقطب الحاجبين فترامى على قدميهِ وبكى واسترحم وذكر لهُ انهُ ليس في طاقتهِ ترك حبيبتهِ فان الحب يمنعهُ من سلوّها والشرف يطالبهُ بوعدهِ لها والدين يفرض عليهِ ان يفي باقسامهِ امامها. وبعد جدالٍ عنيف لم يليّن قلب الوالد ولم يحوّل عزم الولد نهض اللورد مغضَباً وقال لابنهِ لا ازيدك على الوهدة التي ستسقط عليك فيها نار لعنتي وتحرق جسدك فاذهب واتبع طرقك واياك ان تنتسب اليَّ فيما بعد فان اللرد هربرت ملبروك لم يُرزَق بنين . ورأى هنري تصميم والدهِ فخرج من البيت فاقد الهدى وسار وهو لا يعلم الى اين يتوجه

ولما كان اليوم الثاني شاع في المدينة خبر فقد ابن اللرد ملبروك وتناقلت الجرائد الخبر واهتمت الشرط في البحث عنهُ فلم تقف لهُ على اثر وكان جلّ ما عرفهُ رجال الشِحنة ان الفتى بعد خروجهِ من بيت ابيهِ لم يسرِ طويلاً حتى هجم عليهِ ثلاثة رجال ملثمين فاوثقوهُ وسدوا فمهُ ثم حملوهُ الى عربةٍ وساروا بهِ الى حيث لا يعلم احد . ولما مضت بضعة ايام ولم يفلح

رجال الشرط في بحثهم ورد على اللرد مابروك كتابٌ من احدى شركات الشحنة السرية يضمنون لهُ فيهِ ردّ الولد المفقود اذا تعهد اللرد بمكافأة الشركة على بحثها مع اداآء النفقات التي تبذلها في هذا السبيل . فاجاب اللرد انني قبل ان يفقد الولد طردتهُ من بيتي لاسباب داخلية وحذفت اسمهُ من بين اسماء أُسرتي فلا يهمني بعد ذلك وُجد او فُقد

ولما علمت الشركة والشُرَط ان ليس من يهتمّ بامر الفتى المفقود اهملوا البحث عنهُ ثم سكتت الجرائد عن ذكرهِ وهكذا اصبح الامر نسياً منسياً ولم يكن في كل انكلترا من يجيل فكرهُ في هنري او يسأل عنهُ . غير انهُ كان في احدى زوايا لندن بيتٌ صغير فيهِ فتاةٌ هي هنريت ما بلغها فقد حبيبها حتى طارت نفسها شعاعاً فلم تذق طعاماً ولا رقاداً بل كانت تترقب الجرائد كل يوم لتعلم ما انتهى اليهِ امرهُ . ولما انقطعت الاخبار وقعت في يأسٍ شديد فهُزل جسمها وفارقتها نضارتها وعلم والدها بامرها فتفتت قلبهُ جزعاً عليها ولم يدرِ كيف او بماذا يؤسّيها ويسليها

وفي ذات يومٍ نهضت هنريت من رقادها ولما خرج والدها من البيت خرجت في اثرهِ وقصدت شركة الشحنة السرية فطلبت مواجهة المدير ولما مثلت امامهُ قالت أأنت يا سيدي الذي كتبت الى اللرد مابروك تخبرهُ انك قادرٌ على وجدان ولدهِ المفقود . قال نعم . قالت وهل سعيت في ذلك . قال كلا فان اللرد قد تبرَّأ من ولدهِ وارسل يعلمنا انهُ قد حذف اسمهُ من بين اسماء اسرتهِ واذا كان ذلك فمن يعوّض علينا النفقات والاتعاب التي نبذلها في البحث عنهُ . فوقفت هنريت حيناً ثم قالت وكم

المبلغ الذي تطلبونهُ لهذا البحث . قال لا اعلم بالتحقيق لانني اجهل النفقات التي تلزمنا ولكن على كل حال لا يقل ذلك عن الفي جناي . قالت وهل يجب دفع المبلغ معجَّلاً . قال اذا وثقنا بمقدرة الدافع امهلناهُ ريثما نجد الضالة . فنظرت هنريت اليهِ وقد كُسي وجهها احمراراً فنفذت سهام عينيها الى قلبهِ وقالت هل تثق بي فانا أؤدّي لك المبلغ في وقتهِ . ورأى المدير في عينيها دلائل الصدق فقال قد قبلت ثم احضر ورقاً فكتب عليها تعهداً بالدفع بعد ان تعهد من نفسهِ انهُ سيشرع من ليلتهِ في السعي وانصرفت وفي صدرها عاملان من الرجآء واليأس وفي نفسها عزائم شتى . ولما كان اليوم الثاني نهضت من رقادها فطلبت الى والدها ان يأذن لها في السياحة في نواحي ارلندا تبديلاً للهوآء ورأى والدها ان صحتها كانت منحطةً كثيراً في تلك الايام فاذن لها في السفر وزودها بما تحتاج اليهِ من المال فودعتهُ وسارت . وكان جيمس غير غافل عن حركات ابنتهِ فاطلق لها ان تفعل ما تشآء وهو متتبعٌ لها بعينٍ لا تنام

اما هنريت فودعت اباها على نية السياحة وما غابت عن بصرهِ حتى غيرت خطتها فتوجهت الى احد ملاعب التمثيل وسألت قيّمهُ ان يسمح لها بالانضمام الى جوقتهِ فاستقبلها القيّم بالبشاشة وعيَّن لها ادواراً تغنيها وقت التمثيل . ولما قامت هنريت اول ليلةٍ واستقبلت الجمهور تمثلت لها صعوبة الموقف ثم خطر لها حبيبها مفقوداً متروكاً فاستسهلت كل صعب في سبيل ردّهِ ثم اندفعت تغني وكان نشيدها محزناً وكأن نوراً سماويًّا اضآء في وجهها فزاد جمالها اضعافاً وما ابتدأت في الغنآء حتى سحرت الحضور فاستعادوها

مراراً ورأوا في جمالها وبديع حركاتها ما زادهم فتنةً على فتنة فانهالت عليها كتب الفتيان وهداياهم ومبالغ الاموال فكانت تذخر ما يصل الى يدها وتصونهُ صون عرضها ودامت على تلك الحالة مدة سنتين . وكان لها صديقة في ارلندا فكانت من حين الى آخر ترسل اليها رسائل باسم والدها وتكلفها ان ترسلها اليهِ على يد البريد لتوهمهُ انها لا تزال في سياحتها في ارلندا وتخبرهُ انها هناك في اتم السعادة والصفآء . اما الوالد فكما ذكرنا قبلاً كان عالماً بمقرّ ابنتهِ مطلعاً على دقائق اعمالها بل كان يحضر من حين الى آخر محل التشخيص حيث هي ويعرفها من ورآء تسترها العظيم ويذرف دموع الشفقة والمحبة . ولم يكن جيمس مراقباً لاعمال ابنتهِ فقط بل كان يتتبع حركات مدير شركة الشحنة السرية ايضاً لانهُ شعر منهُ باشيآء تدعو الى الريب في امرهِ . ولما اتمت هنريت السنتين رأت ان ما توفر لديها من المال والجواهر يفوق القيمة المطلوبة فبعثت برسالة الى مدير شركة الشحنة تسألهُ عما كان من امر المفقود وعلم ذلك انها قد تمكنت من جمع المال المطلوب فاجابها انهُ يؤمل ارجاعهُ في مدة خمسة ايام فطارت نفس هنريت سروراً واستعفت من الجوق ورجعت الى بيت والدها

في غد ذلك اليوم خرج والد هنريت فتنكر بزيّ الفعلة وجعل يجول من موضع الى آخر كأنهُ يبحث عن شغلٍ يرتزق منهُ حتى بلغ منزلاً منفرداً عن المدينة فجلس بجانبهِ على الطريق . وبينما هو جالسٌ اذ مرَّ بهِ رجلٌ عرفهُ لاول وهلة انهُ من رجال الشحنة السرية ولما وصل اليهِ قال لهُ ماذا تفعل هنا ايها الرجل . قال لم يتيسر لي شغلٌ اليوم وقد انتهى بي السعي

الى هنا فجلست استريح . قال هل لك ان تدخل في خدمتي فان في هذا البيت فتىً قد فقد عقلهُ واصبح في اشد حالات الجنون ولم يشأ اهلهُ ان يرسلوهُ الى مستشفى المجانين فعهدوا بهِ اليَّ وهو في هذه الايام في حالة الهياج الشديد وانا في احتياج الى رجلٍ قادر يتخذ وظيفة بواب ويحافظ على هذا الفتى فهل لك في ذلك . فما صدَّق جيمس ان سمع هذا الكلام غير انهُ تردد هنيهةً ليخفي سرورهُ ثم قبل وتم الاتفاق بينهما فاستلم جيمس وظيفتهُ واوصاهُ صاحب البيت ان يحتفظ بالباب ويمنع كل من يطلب الدخول اليهِ وحذَّرهُ جدًّا من فتح باب غرفة المسجون. غير انهُ ما انصرف الرجل حتى بادر جيمس الى باب الغرفة ففتحهُ ورأى هنري المسكين وقد ذبل لونهُ وهزِل جسمهُ وطال شعرهُ فلم يتمالك ان تساقطت عبراتهُ ورأى ان هنري لا يزال بتمام عقلهِ وادراكهِ

وظهر بعد ذلك من ابحاث جيمس ان الذين اختطفوا هنري هم نفس رجال الشحنة المذكورة وكانوا قد رأوا ان اشغالهم في وقوف وصادفوا ابن اللرد مابروك في موضع منفرد وذلك في اليوم الذي طردهُ فيهِ والدهُ فاختطفوهُ واخفوهُ في البيت المذكور بغاية التحفظ وجعلوا في خدمتهِ عجوزاً خرسآء فكانت تقدم لهُ المأكل والمشرب ولا يستطيع ان يستفيد منها شيئاً عن حالتهِ . وكان في ظن رجال الشحنة ان والد هنري لا بد ان يرجع اليهم بعد نفاد حيلة الشرطة فيتقاضونهُ مبلغاً كبيراً من المال ويردّون اليهِ ولدهُ فسآءَ فألهم حين اخبرهم اللرد انهُ قد نبذ ابنهُ ولم يبقَ من يسأل عنهُ وبينما هم يفكرون في كيف يردّون الفتى اذ ظهرت هنريت فتجددت

آمالهم وكان من امرهم وامرها ما ذكرناهُ

وبعد ما وردت رسالة هنريت على مدير الشركة ووعدها انهُ سيجد هنري في مدة خمسة ايام ارسل احد رجالهِ لاحضار هنري كانهُ قد اهتدى الى محل وجودهِ . ولما وصل الرجل الى المحلّ كلَّم البواب وهو جيمس ففتح لهُ ودخل الى غرفة هنري وما كاد يطأ الباب حتى وثب اليهِ رجلان من الشرطة كانا قد حضرا بطلب جيمس فاوثقاهُ واخفياهُ . ولما استبطأ المدير رجوع رجلهِ قام بنفسهِ الى المحل المذكور وسأل جيمس هل اتى احدٌ من قبلهِ فقال لا . فدخل المدير فاصابهُ ما اصاب رفيقهُ ولما القي القبض على الاثنين ذهب جيمس بهما وبهنري فسلَّم الرجلين الى الحكومة وعاد بهنري الى بيتهِ . واستقصت الحكومة اخبار هذه الشركة فقبضت على افرادها وعاقبتهم بما اقتضت جريمتهم

وبعد ما اقام هنري في بيت حميهِ اياماً نفض فيها عن نفسهِ غبار ذلك السجن عُقد لهُ على هنريت وكان فيما جمعتهُ هنريت من المال ما يكفيهما لسد حاجات المعاش فاكترى لهُ منزلاً بظاهر البلد وعاش معها بتمام السعادة والسرور ولم يكن ما ينغصهُ الا مجرَّد تفكرهِ في فقدانهِ حقوقهُ من بيت ابيهِ

وبعد ان اتت عليهما مدةٌ من الزمان رزقهما الله ولداً وكان آيةً في الجمال فاتخذا لهُ حاضنةً ترضعهُ وتربيهِ . وان الحاضنة خرجت يوماً بالطفل تنزههُ في احدى الحدائق العمومية فبينا هي تمشي بهِ اذ مرَّ بها شيخٌ كبير من اشراف البلدة فلما رأى الطفل على يدها أُعجب بجمالهِ فوقف